سؤال الهوية بين النظرية وواقع الثقافة في ظل العولمة من خلال وسائل الإعلام المرئية العربية والجزائرية.

د. منصور مرقومة

–جامعة عبد الحميد بن باديس– مستغانم

توطئة:

سأحاول في هذه الورقة الإجابة عن السؤال الذي مفاده: عن أية هوية محلية (عربية) نتحدث في ظل واقع الثقافة الذي يفرضه النظام العالمي الجديد؟ ومن أجل ذلك سوف نتعرض بنوع من التفصيل إلى كل من الهوية والثقافة والعولمة كمفاهيم وكواقع معاش في ظل الهيمنة العالمية خاصة في جانب الإعلام المرئي، في إطار هذه الظاهرة الكونية الاقتصادية والثقافية المتمثلة في التوحد العالمي، والذي تعرفه دول العالم حاليا مدعوما بالتطور التكنولوجي لوسائل الإعلام والاتصال والمعلوماتية كالأقمار الصناعية والأنترنيت والوسائل السمعية البصرية، وغيرها من وسائل الاتصال الحديثة. وقد قمت بتقسيم هذه المحاولة إلى فرعين أساسيين بحيث أتحدث في الفرع الأول عن الهوية والثقافة وعلاقتها بالظاهرة العالمية (أية علاقة؟ وأي تأثير؟)، بينما سأتحدث في الفرع الثاني عن علاقة ذلك بوسائل الإعلام المرئية العربية و الجزائرية.

أولا: الثقافة والهوية والعولمة. أية علاقة وأي تأثير؟

الملاحظ اليوم لحال الثقافة بشكل عام، يلاحظ أن هناك ثقافة عالمية آخذة في التشكل تتجاوز كافة الحدود القومية أو المحلية الأخرى، وقد يصف البعض هذه الثقافة العالمية الجديدة بأنها ثقافة سطحية، أو استهلاكية، أو غزو ثقافي، أو مادية، أو غير ذلك من النعوت التي يمكن أن تطلق عليها. ولكن مهما كان الوصف المعطى فإنه لا ينفي الحقيقة القائمة التي هي أن مثل هذه الثقافة تنتشر وتسود على حساب ثقافات محلية وقومية عديدة. و" بذلك قد نشجب مثل هذه الثقافة، وقد نرفضها، ولكن لا الرفض ولا الشجب قادران على وقف زحفها، طالما أننا لا نقدم بديلا ثقافيا قادرا على المنافسة في عصر متغيرات متسارعة، وليس مجرد الوعظ والنصح"[1]. هذه العولمة لا تعطي الوقت الكافي للتمحيص والتخمين، فهي تتم وتتسع بل وتنتشر بشكل سريع ورهيب وفي كثير من الأحيان مفاجئ. (مثال: تطور وسائل الاتصال الجماهيري والتواصل الاجتماعي).

و"هذه الثقافة العالمية المتشكلة، ليست قاصرة على (الصراعات) أو (الأمركة) التي نشاهدها في مختلف المجالات الحياتية، ولكنها تذهب إلى الجذور المعرفية الثقافية"[2]. وتطرح الآن وسائل أخرى كما طرحت في السابق قضية الهوائيات المقعرة، ونجد أنفسنا كعالم ثالث، وكمجتمع عربي إسلامي، في صراع يعتمد على حلين أساسيين أحلاهما مر، وهما: إما الذوبان الكامل في هذه الثقافة الجديدة (استهلاك بجميع أنواعه)، أو الرفض السلبي دون تقديم البديل

الإيجابي. تفرض ذلك كله الشركات العالمية التي تمتلك رؤوس أموالها الدول الكبرى المهيمنة على العالم في ميدان الثقافة والاقتصاد. و"الشركات التي كانت ذات يوم تسمى (الشركات متعددة الجنسية)، تتحول اليوم إلى أخطبوطية دون جنسية، لا وطن لها ولا مركز مكاني معين. فقد قضت ثورة الاتصالات على أهمية المكان، بحيث أصبح أي مكان هو المكان طالما أنه يحقق أغراض الشركة وأهدافها".[3] ولقد أثبتت السياقات العالمية والمحلية، أنه ليست لدينا القدرة على التصدي أو البديل، بل ليست لدينا القدرة على المساهمة والمشاركة في الثقافة العالمية. لسنا من القوة بمكان، لنواجه الدول الكبرى، ولينا أيضا في مقام بعض الدول الأخرى كاليابان والصين اللتان تمتلكان من القوة الاقتصادية، بل ومن القوة الثقافية أيضا، ما نساهم به في العولمة، فتنفرد هاتين الدولتين بثقافتهما أولا ثم بخلق اقتصاد يواكب الاقتصاد العالمي، استطاعتا أن تحافظا على هوياتهما، رغم مشاركتهما الفعالة والفاعلة في السياق العالمي الجديد. وتكون العولمة على أساس ذلك إجراء تاريخي واقتصادي وثقافي.

لقد "سعت الثقافة الغربية، إضافة إلى كونها أيديولوجية بطبيعتها، إلى قهر وسائل النقد والعقلانية في العالم الإسلامي، وفي حالتنا استهدفت العقل العربي الإسلامي محاولة جعله ينسى ماضيه المتفرد المجيد"[4].

ثانيا: الثقافة والإعلام المرئي العربيين في ظل العولمة

يعتبر الإعلام المرئي من وسائل الاتصالات الحديثة والمهمة في نفس الوقت لإيصال الأخبار، ونقل المعلومات، وتبادل الثقافات (التثاقف)، والمحافظة على القيم والعادات والتقاليد لمجتمع معين أو لمجموعة اجتماعية. يقول نعوم تشومسكي وإدوارد هرمان "أن نظام وسائل الاتصال الجماهيرية يمكِّن من نقل الأخبار والرموز إلى الجمهور العريض، فوظيفة هذه الوسائل هي تسلية الأفراد وإخبارِهم...وأيضا إقحام هؤلاء الأفراد في القيم والمعتقدات ونظم التصرفات الكفيلة لإدماجهم في الهياكل المؤسساتية للمجتمع الواسع"[5]. فمجتمعات العالم العربي كغيرها من المجتمعات الأخرى قد أخذت نصيبها في هذا المجال، فأصبحنا نرى القنوات الفضائية المتعددة في جميع أنحاء العالم العربي من أقصاه إلى أدناه، وأصبحت هذه المجتمعات تسعى إلى تفعيل دور هذه الوسائل في تثقيف الأفراد والجماعات، و إيصال الأخبار، وتنوير الرأي العام في ظل النظام العالمي (العولمة) وتبعا للثقافة العالمية التي أصبح العالم فيها عبارة عن قرية صغيرة كما يقال.

غير أن المتتبع اليوم لوسائل الإعلام العربية، المرئية منها خاصة (وما أكثرها)، يلاحظ ما تتعرض له هذه الوسائل من هيمنة أجنبية وغزو واختراق، سواء عن قصد أو عن غير قصد، بعلم العرب القائمين عليها أو دون علمهم، وربما بمشاركاتهم في كثير من الأحيان في ترسيخ وترويج هذه الهيمنة، بالعمل على طمس الهوية والثقافة العربية والإسلامية، وذلك بحجة العولمة والتحرر الثقافي، وحرية التصرف والتعبير وما إلى ذلك من المصطلحات المنمقة والمغلفة بسموم الغرب الثقافية التي سعت في وقت سابق ولا تزال تسعى لمزيد من الهيمنة وبسط النفوذ الثقافي الغربي، وسيادة العادات والتقاليد والقيم الغربية على حساب نظيراتها العربية الإسلامية. فلم يعد هناك مجال على هذا الأساس، للحديث عن ثقافات وطنية أو عن خصوصيات ثقافية إلا نادرا.

"ولما كانت الثقافة هي مجموعة السمات الخصوصية، الروحانية، والمادية والفكرية والشعورية التي تميز مجتمعا أو مجموعة اجتماعية"[6]، فإننا نلاحظ التغييب التام، والتهميش شبه المطلق لدول العالم الثالث عامة، والعربية الإسلامية خاصة، كخصوصية ثقافية مرتبطة بقضايا السيادة والهوية والحق في التميز والاختلاف، وأصبحت تُعتبر مجتمعات استهلاكية ليس إلا. فتعرضت للتعتيم المقصود، والانتقاص من شأنها، وأصبحت ثقافات دول العالم العربي الإسلامي، ومعها ثقافات بعض الدول الأخرى تنعت ب "الثقافات المتدنية". لقد أصبحت هذه الثقافة التي تروِّج لها الكثير من وسائل الإعلام المرئية العربية عبارة عن خليط "كوكتيل" لكل الشطحات والخرجات العالمية في بعدها السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، فلم تعد الثقافة العربية الإسلامية على هذا الأساس، تحتفظ بتلك الروح وتلك الخصوصية التي تميزها عن ثقافات باقي المجتمعات العالمية، ولم نعد نفرِّق بين ما هو عربي إسلامي أصيل ومتجذر، وبين ما هو مستورد دخيل وهجين.

إن اعتبارات القوة، متمثلة في شركات الإعلام والاتصال متعددة الجنسيات، والتي أصبحت بدون جنسيات كما سبق وأن أشرنا، "هي التي بدأت إذا، وبعمق، في تحديد الإنتاج الثقافي، سواء تعلق الأمر بإبداع وإذاعة الأفلام والبرامج التلفزيونية، أو التقاط وتوزيع الأخبار، وإلى حد ما الإبداع الأدبي ونشره". بدأت بقوة في كسب مزيد من المساحات الثقافية والاقتصادية على المستوى العالمي بشكل عام والعربي بشكل خاص، فكان ذلك على حساب الخصوصية الثقافية العربية الإسلامية. يقول جاك ديلكور في هذا الصدد: "إن الهيمنة الثقافية وفرضها على دول الجنوب إنما هي أحد شروط غزو الأسواق وتوزيعها". ومن المفارقات العجيبة أن هذه الهيمنة لم تمس إلا الدول المغلوبة على أمرها، أو التي أصبحت تحمل بذور هذه الهيمنة، بذور القابلية والاستعداد للاستعمار في شكله الجديد كما أشار إليه المفكر مالك بن نبي في مشكلات الحضارة. لقد لاحظنا في كثير من المناسبات كيف أن الدول التي تحترم نفسها وتحترم شعبها، بل وتحترم ثقافتها أيضا، وتمتلك من المؤهلات ما يمكنها من ذلك، تصدت للعولمة في جانبها الثقافي. فهذه فرنسا، رغم اشتراكها في كثير من الخصائص والعادات والتقاليد مع الغرب، تنادي ب "الاستثناء الثقافي" (L'exception culturelle) لدى المنظمة العالمية للتجارة باعتبار أن المسألة الثقافية، لا يمكن أن تطبق عليها المعايير والقوانين التي تخضع لها السلع والخدمات، بحكم خصوصيتها وارتباطها بقضايا الهوية والسيادة والحق في التميز.

خاتمة:

لقد أشار الكثير من العلماء والمثقفين العرب إلى عوامل وعواقب الغزو والاستتباع الثقافي الوخيمة التي انجرت وسوف تنجر على عالمنا العربي والإسلامي، أو على الأقل دعوا إلى التعامل مع مظاهرها بوعي وتبصر. يقول محمد عابد الجابري في المسألة الثقافية في الوطن العربي " إننا معرضون لغزو ثقافي مضاعف: الغزو الكاسح الذي يحدث على مستوى عالمي، الغزو الذي تمارسه علينا الدول الاستعمارية التقليدية، أما الوسائل فهي نفسها: الإعلام بالمعنى الواسع والمتشعب، الإعلام الذي يغزو العقل والخيال والعاطفة والسلوك، ناشرا قيما وأذواقا وعادات جديدة تهدد الثقافات الوطنية القومية في أهم مقوماتها ومكامن خصوصياتها". ويردف قائلا " إن تعميم الاستهلاك أو بالأحرى فرض نمط

معين من الاستهلاك على الشعوب، النمط الذي تسود فيه السلع الكمالية والوسائل الترفيهية...ذلك هو الهدف من الاختراق الثقافي والاستتباع الحضاري".

لقد انتهج الكثير من المثقفين العرب هذا النهج في التعامل مع الظاهرة العالمية الكاسحة، وحذروا من خطورة وسائل الإعلام المرئية منها خاصة، بما فيها العربية والأجنبية، بحكم تمكنها من الوصول إلى كل بيت وبسهولة تامة، وبحكم سهولة تمرير برامجها عبر اللغة التي يفهما العالم العربي. غير أن التحذيرات لم تجد الآذان الصاغية، ولم تلق الصدى المرجو، اللهم إلا من طرف القلة القليلة من أبناء العروبة والإسلام الغيورين على دينهم وثقافتهم ولغتهم، وذلك لأن مركز القرار، وسلطة الحل والربط ليست بأيدي هؤلاء المثقفين، وأن من بيدهم ذلك كله، هم في شغل شاغل عما يدور حولهم، بل قد يُسهمون في بث السلع الثقافية المستوردة من الغرب بعلم أو بدون علم.

إن التحدي الذي يواجه المثقفين والعلماء العرب والمسلمين كبير، والمسؤولية الملقاة على عاتقهم أكبر، والعمل الذي ينتظرهم شاق وطويل، وليس ذلك لأحد إلا للعلماء والمثقفين، فهم حملة العلم، والنبراس الذي ينير الطريق. "فالثقافة هي التي تقف وراء النشاط الحضاري"[7]

الإحالات و الهوامش :

1 - تركي الحمد، الثقافة العربية في عصر العولمة، دار الساقي، بيروت، 2003. ص. 7.

2 - المرجع نفسه. ص. 11.

3 - المرجع نفسه. ص. 9.

4 - إبراهيم أبو ربيع، هل من رد إسلامي على العولمة؟، ترجمة عبد الله جاد، / http:/www.islam-online.net/iol-arabic

5 - يحيى اليحياوي، في العولمة والتكنولوجيا والثقافة، 2002، ص30.

6 - تعريف اليونيسكو: المؤتمر العالمي للثقافة، مكسيكو 1982.

7 - تركي الحمد، مرجع سبق ذكره. ص. 15.